مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: الأنساق التصورية في نماذج من الأخبار الأدبية
اسم الكاتب: محمد الناصر كحولي
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/9298
تاريخ الاسترداد: 2026/04/11 00:11 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH

مجلة جامعة الشارقة

مجلة علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 20، العدد 3
جمادى الثاني 1445هـ / سبتمبر2023م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

سبتمبر 2023م **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية** المجلد 20 العدد 3
https//:doi.org/10.36394/jhss/20/3/2

الأنساق التصوّريّة
في نماذج من الأخبار الأدبيّة

محمّد الناصر كحّولي[1]

تاريخ الاستلام: 2021-11-01 **تاريخ القبول: 2022-03-14**

ملخص البحث:

يروم هذا المقال دراسة الأنساق التصوّريّة الكامنة في أعماق الأخبار الأدبيّة، وبيان كيفيّة اشتغالها، والوقوف على دورها في صناعة تلك الأخبار. فهي تشدّ الخبر الأدبيّ إلى عمقه العرفانيّ، وتجذّره في التجارب المختلفة سواء الفيزيائيّة أو الاجتماعيّة أو الثقافيّة، وتؤكد الطبيعة الاستعاريّة للذهن.

ويقوم البحث على عدّة مباحث، ينصرف كلّ منها إلى دراسة نوع من أنواع الأخبار الأدبيّة، للوقوف على أبرز أنواع الأنساق التصوّريّة المتحكّمة فيه، وبيان ما تتضمّنه من تصوّرات استعاريّة تمثّل العمق العرفانيّ في ذلك النوع من الأخبار، وكشف عمليّة الإسقاط بين التناسبات الجامعة بين التصوّر الاستعاريّ والخبر الأدبيّ، ونقل البنيتيْن اللغويّة والاستنتاجيّة من المجال المصدر إلى المجال الهدف.

وسيستند البحث في منطلقاته النظريّة وجهازه المفهوميّ والاصطلاحيّ إلى الفلسفة التجريبيّة، ومقولات العرفانيّة. ويطمح إلى تأكيد أنّ الأخبار الأدبيّة في ظاهرها تحقّق خطابيّ للأنساق التصوّريّة الكامنة في أعماقها.

الكلمات الدالة: النسق التصوّريّ، التصوّر الاستعاريّ، الخبر الأدبيّ، الإسقاط، التناسبات.

(1) كلّيّة اللّغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة - جامعة القصيم (القصيم - المملكة العربيّة السعوديّة)
Knacirov1@yahoo.fr

20-3.indd 32 8/30/2023 8:44:42 PM

المقدّمة:

يُنظر إلى الخطاب من حيث هو ملفوظ منزّلا في سياق، و«يتجاوز الجملة، ويخضع لقواعد تنظيم تخصّ كلّ جنس من أجناس الخطاب» (باتريك شارودو ودومينيك منغنو، 2008، ص 182)، بأنّه مكوّن من طبقتيْن أو مستوييْن: مستوى السطح أو المستوى الفوقيّ، ومستوى العمق أو المستوى التحتيّ (Sous-jacent). وكان تحديد المستوييْن مدار اختلاف عميق بين الفلسفة الموضوعيّة من جهة، بدءًا من الفلسفة الإغريقيّة، خصوصًا فلسفة أرسطو المنطقيّة، وصولا إلى الفلسفة التحليليّة مع سيرل وغرايس، والفلسفة التجريبيّة مع العرفانيّين من جهة أخرى. ففي إطار الفلسفة الموضوعيّة رأت البنيويّة أنّ العلامات اللسانيّة في كلّ لغة تخضع في نسقها لبنى لغويّة محدودة، وكلّ جملة هي تحقّق سطحيّ لبنية لغويّة عميقة. وذهب السيميائيّون إلى أنّ للخطاب بنيتيْن: بنية سطحيّة تشمل المكوّن السرديّ وما فيه من تحوّلات تتعلّق بالفواعل، والمكوّن الخطابيّ وما فيه من صور ومولّدات المعنى، وبنية عميقة تشمل نظام العلاقات بين قيم المعنى وكيفيّة الانتقال من قيمة إلى أخرى (Greimas 1966, p. 159). ورأت التداوليّة مع دومينيك منغينو أنّ لكلّ ملفوظ واجهة أولى هي المعطى (Posé)، وواجهة خلفيّة هي المقتضى (Présupposé) (Dominique Maingueneau, 1990, p. 82).

ولم تُعرض العرفانيّة عمّا ذهب إليه القوم في الفلسفة الموضوعيّة من تكوّن الكلام من مستوييْن، ولكنّها اختلفت عنهم في تحديد طبيعة هذيْن المستوييْن. فرأت أنّ المستوى العميق يختزن الأنساق التصوّريّة، وأنّ المستوى السطحيّ هو تحقّق ظاهريّ (Surface realization) لتلك الأنساق. والمقصود بالنسق التصوّريّ أو النظام المفهوميّ هو «الطريقة التي ينظّم بها الذهن المعرفة عن العالم، وهي معرفة في معظمها غير واعية، وتُنظّم في تصوّرات/ مفاهيم تشكّل نسقًا تصوّريًا يغطّي النطاق الكامل للتجربة البشريّة» (Zoltan Kovecses, 2015, pp. 32 - 33.). وتترابط تلك التصوّرات الاستعاريّة فيما بينها عن طريق الاستلزام، فتشكّل نسقا واحدا مؤسّسًا على التفريع المقوليّ (Subcategorization)، حيث يستلزم كلّ تصوّر استعاريّ مركزيّ التصوّر الاستعاريّ الفرعيّ (جورج لايكوف ومارك جونسن، 2018، ص 33.).

ويوجد في الذهن نظام تصوّريّ ضخم وثابت (George Lakoff, 2008, p. 24). وهو يجذّر الكلام في عمق عرفانيّ، ويربطه بتجارب الإنسان الفيزيائيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، ويقوم دليلا على أنّ الذهن استعاريّ بالأساس. وقد ذكر له سلطان كوفيتش أربع خصائص: الجسدنة والتخطيط والخياليّة والاعتباطيّة الجزئيّة. ثم دعّمها بخاصّيّة أخرى هي الهرميّة (Zoltan Kovecses, 2015, p. 39).

20-3.indd 33 8/30/2023 8:44:42 PM

والنسق التصوّري نوعان: عموديّ وأفقيّ. يُنسب النسق العموديّ إلى إليانور روش، ويقوم على التقسيم المقوَليّ، ويتكوّن من ثلاثة مستويات: المستوى الأعلى (Superordinate level)، والمستوى القاعديّ (Basic level)، والمستوى الفرعيّ (Subordinate level) (Zoltan Kovecses, 2015, p. 39). ويتعلّق النسق الأفقيّ، بمفهوم الإطار (Frame) عند فيلمور، وهو مجموع المعارف المترابطة والمتّصلة بلفظ مّا، والمرتبطة بإدراكنا لتجاربنا الفيزيولوجيّة والاجتماعيّة والثقافيّة. فلا يُفهم معنى لفظة مّا إلّا بربطه بمعاني الألفاظ الأخرى المكوّنة لذلك الإطار (Charles Fillmore, 1982, p. 111). وقد تطوّر هذا النسق الأفقيّ مع مفهوم المنوال العرفانيّ المؤمثل (Idealized Cognitive Model) عند لايكوف، ثم مفهوم المجال (Domain) عند لانقاكر.

وأمّا التصوّر الاستعاريّ أو الاستعارة التصوّريّة، فالمقصود به بَنينة (Structuration) تصوّر أو مفهوم مجرّد، وفهمه، من خلال تصوّر أو مفهوم حسّيّ، عن طريق إسقاط ترسيمات (Mappings) التصوّر الحسّيّ، سواء كانت وجوديّة أو معرفيّة (George Lakoff, pp. 386 - 387)، على ما يناسبها في التصوّر المجرّد. وهو جزء من النسق التصوّريّ وليس مجرد تعبيرات لغويّة (George Lakoff, 2008, p. 24). ومن خصائصه كلّيّة الحضور (Omniprésence) في التفكير. وهو الناقل الرئيس للمعنى.

وقد اقتصرت الدراسات والبحوث العرفانيّة، غالبا، في الاستدلال على تلك الأنساق التصوّريّة الثاوية في أعماق الكلام، بالجمل ومختلف أنواع التراكيب الواردة في الكلام اليوميّ. ولمّا كانت «التصوّرات الاستعاريّة توجد في ذهن الفرد، ثمّ تتطوّر من خلال السياقات الثقافيّة» (Lynne Cameron, 2008, p. 209)، فإنّنا نزعم أنّ الأنساق التصوّريّة قد شبّت عن طوق التراكيب اللغويّة والكلام اليوميّ، فتطوّرت، ثم تسرّبت إلى مختلف أنواع الخطابات بما فيها الخطاب الأدبيّ، وتحديدا الخبر الأدبيّ. وتلك «الأنساق «حيّة» في أذهان المتكلّمين، وهم يستخدمونها تلقائيّا ودون وعي، في التفكير» (George Lakoff, 2012, p. 777). فلم يعد الخبر الأدبيّ مجرّد إخبار عن وقائع مضت أو شخصيّات تواصلت، بقدر ما أصبح تجلّيّا خطابيّا (Discourse realization) لبعض الأنساق التصوّريّة الكامنة في أعماقه.

ويُعد تتبّع تلك الأنساق التصوّريّة والوقوف على كيفيّة اشتغالها في نماذج من الأخبار الأدبيّة وبيان وظائفها الهدف الأساسيّ في هذا المقال. ومردّ اختيار هذا الموضوع إلى عدم وجود دراسات سابقة، من جهة، والسعي إلى مقاربة الخبر الأدبيّ مقاربة مختلفة عن المقاربات الأخرى السابقة. وسيعتمد المقال على المنهج الوصفيّ التحليليّ، مع الإفادة من مقولات البلاغة العرفانيّة. فما تلك الأنساق التصوّريّة؟ وما التصوّرات الاستعاريّة المتعلّقة بها؟ وكيف تتحكّم في صناعة الخبر الأدبيّ؟ وكيف تشتغل داخل الخبر الأدبيّ؟ وفيم تتمثّل وظائفها؟

20-3.indd 34 8/30/2023 8:44:43 PM

وللإجابة عن هذه الأسئلة وأشباهها سننطلق من بعض الأخبار الأدبيّة. منها ما يستجيب للمكوّن المعرفيّ، ومنها ما يستجيب للمكوّن النفسيّ الوجدانيّ، ومنها ما يستجيب للمكوّن القيميّ السلوكيّ. ويردّ اختيارنا الخبر الأدبيّ إلى كونه يمثّل، إلى جانب الحكاية والقصّة والسيرة، الأنواع الأصول في السرديّة العربيّة القديمة. ولعلّ النتائج المتوصّل إليها يمكن تعميمها على سائر الأنواع السرديّة الأخرى سواء القديمة أو الحديثة. ولن نقتصر على كتاب معيّن من كتب الأخبار الأدبيّة بسبب توزّع الأخبار الأدبيّة بمختلف أنواعها بين كتب عدّة، فضلا عن اختلاف الصياغة من كتاب إلى آخر. ولذلك سنتتبّع الصياغة الأوفي والترهينة الأقرب إلى نشأة الخبر، ونقدّمهما على التقيّد بكتاب واحد. ومن أشهر أنواع الأخبار الأدبيّة أخبار الأذكياء. فما النسق الاستعاريّ المتحكّم في صناعة هذا النوع من الأخبار الأدبيّة؟

أوّلا- أخبار الأذكياء ونسق الذكاء رؤية.

ترى الفلسفة الموضوعيّة أنّ الواقع موجود بشكل مستقل عن أجسادنا وأذهاننا، وأنّ ما يوجد في أذهاننا هو مجرّد رموز من كلمات وتمثيلات، إن تطابقت مع الواقع فهي صحيحة، وإن لم تتطابق فهي غير صحيحة. ويترتّب على ذلك أنّ التصوّرات والمفاهيم مستقلّة عن الذهن والجسد، وهي تصوّرات صوريّة ومجرّدة، تخصّص الأشياء على النحو الذي توجد عليه في الواقع، وعلينا أن نعرفها ونستعملها لنفكّر تفكيرا صحيحا (George Lakoff, 1987, p. 12).

وبناء على أسس الفلسفة الموضوعيّة يُفيد تصوّر الذكاء معنى «سرعة الفطنة» (ابن منظور، 2009، ص 6748)، وهو ضدّ البلادة. والذكاء في اللغة تمام الشيء، ومنه الذكاء في السنّ، وهو تمام السنّ، ومنه الذكاء في الفهم، وهو أن يكون فهما تامّا سريع القبولِ. وهو كذلك شدّة وهج النار. ومسك ذكيّ ساطع الرائحة. والأصمعان هما الرأي العازم والقلب الذكيّ. وللذكاء مظاهر مختلفة، منها الفطنة وحدّة الفهم، وسرعة البديهة والردّ المفحم وإنتاج الشيفرة وتفكيكها، وتوظيف مختلف عناصر السياق في إنتاج الكلام وتأويله آن القول (On-ligne). ويلتقي تصوّر الذكاء مع تصوّرات أخرى في مستوى بعض المعينمات، من قبيل احرمّز وتحرمز، أي صار ذكيّا.

ويفيد تصوّر ذكيّ معنى سريع الفطنة، فيعلم معنى القول عند سماعه. وهو يشترك مع تصوّرات أخرى في بعض المعينمات مثل الألمعيّ والبلبول والكيّس والحامز والحميز والشهم السحجيّ والباقعة والأريب والنقّاب. وقد ضُربت بالذكيّ الأمثال، فيُقال هو أزكن من إياس. والزكن هو الفطنة والحدس الصادق. وللذكي علامات فيزيائيّة، فإذا غلظت الرقبة دلّت على قوّة الدماغ ووفوره. ومن كانت عينه تتحرّك بسرعة وحدّة فهو مكّار

20-3.indd 35 8/30/2023 8:44:43 PM

ومحتـال ولـصّ. وإذا كانـت العيـن صغيـرة غائـرة فصاحبهـا مـكّار حسـود. ومـن كان نحيـف الوجـه فهـو فَهِم. ومـن علاماتـه السلوكيّة سكوته وسكونه وخفض بصره وحركاتـه فـي أماكنهـا اللائقـة بهـا ومراقبتـه للعواقـب. فـلا تسـتفزّه شـهوة عاجلـة عقباهـا ضـرر. وتـراه ينظـر فـي الفضـاء فيتخيّر الأعلـى والأحمـد عاقبـة مـن مطعـم ومشـرب وملبـس، وقـول وفعـل. ويتـرك مـا يخـاف ضـرره ويسـتعدّ لمـا يجـوز وقوعـه (ابـن الجـوزي، الأذكيـاء، 2009، ص 12).

ولكـنّ هـذه التعريفـات ظلّـت قاصـرة عـن فهـم مصطلحـيّ الـذكاء والذكـيّ، لكونهـا تقصّـر التصوّريْـن علـى تعييـن الأشـياء والموجـودات فـي الواقـع الموضوعـيّ، فبقـي التصـوّران «مفقريْـن نسـبيًا، ولهمـا حـدّ أدنـى فحسـب، أي لهمـا بنيـة هيكليّـة» (جـورج لايكـوف ومـارك جونسـون، 2016، ص 104). ويقتضـي فهـم الـذكاء أو التفكيـر فيـه، تصـوّره استعاريًا. وهنـاك نسـق تصـوّريّ واسـع وغيـر واع، يُسـتعمل لفهـم الـذكاء والذكـيّ مـن حيـث همـا تصـوّران مجـرّدان ليتيسّـر فهـم مختلـف مظاهرهمـا وكيفيّـة اشـتغالهما. ويمكـن الاصطـلاح علـى هذا النسـق التصـوّريّ بالـذكاء رؤيـة. وليـس المقصـود باللاوعـيّ مـا ذهـب إليـه فرويـد، وإنمـا هـو اللاوعـي العرفانـيّ، وهـو مسـتوى أدنـى مـن مسـتوى الإدراك، يشـتغل دون وعـيّ منّـا.

ويتضمّـن النسـق التصـوّريّ الـذكاء رؤيـة تصـوّرات استعاريّة عـدّة، منهـا مـا تعلّـق بالـذكاء مثـل الـذكاء نـور والـذكاء نـار والـذكاء شـعلة، ومنهـا مـا تعلّـق بالذكـيّ مثـل الذكـيّ شـعلة. وتُعـدّ هـذه التصـوّرات الاسـتعاريّة تواضعيّـة (Conventional) لكونهـا جـزءا راسـخا فـي النسـق التصـوّريّ الـذكاء رؤيـة.

ويستمدّ نسق الذكاء رؤية نسقيّته من أمريْن واقتضاءيْن:

1. الرؤية تولّد الإدراك.
2. الإدراك يكشف الحقيقة.

ويترتّب على هذين الأمريْن اقتضاءان استعاريّان:

- الاقتضاء 1: - المقدّمة الكبرى: الذكاء رؤية.
  - المقدّمة الصغرى: الرؤية تولّد الإدراك.
  - النتيجة: الذكاء يولّد الإدراك.
- الاقتضاء 2: - المقدّمة الكبرى: الذكاء رؤية.
  - المقدّمة الصغرى: الإدراك يكشف الحقيقة.
  - النتيجة: الذكاء يكشف الحقيقة.

20-3.indd 36 8/30/2023 8:44:44 PM

يحقّق هذان الاقتضاءان الاستعاريّان مبدأ النسقيّة داخل النسق الذكاء رؤية. وتتعزّز تلك النسقيّة بطبيعة العلاقة بين التصوّرات الاستعاريّة: الذكاء نور والذكاء نار والذكاء شعلة والذكيّ شعلة. فهي تشكّل نسقا واحدا مؤسّسا على نظريّة التفريع المقوليّ (Subcategorization) (جورج لايكوف ومارك جونسن، 2018، ص 33). فالذكاء نور، والنار مصدر من مصادر النور، وفرع منه، والشعلة مصدر من مصادر النار وفرع منها. وعلى هذا النحو تترابط هذه التصوّرات الاستعاريّة ترابطا استلزاميّا، فالنور يستلزم النار، والنار تستلزم الشعلة. فتتحقّق النسقيّة داخل النسق التصوّريّ الذكاء رؤية.

ويستند النسق التصوّري الذكاء رؤية بمختلف تصوّراته الاستعاريّة إلى أساسيْن: تجريبيّ وثقافيّ. يتّصل الأساس التجريبيّ بتجربة العربيّ قديما. فقد كان في صراع مستمرّ مع ظلام الليل، خصوصا في الصحاري المقفرة والموحشة. فكان يشعل النار ليلا ليضيء المكان، فيُبصر بنورها ما حوله، ويُدرك حقيقة الأشياء المحيطة به، ويكون نورها دليلا لمن أظلمت عليه المسالك، وتقطّعت به السبل وأشكل عليه أمرها.

ويتّصل الأساس الثقافيّ برؤية العربيّ للنار، فهي مصدر النور والإضاءة، وترشد الإنسان إلى حقائق الموجودات والأشياء من حوله. فالعرب تقول: «ذَكَتِ النارُ تَذْكو ذُكُوّاً وذكاً، واسْتَذْكَتْ، كُلُّه: اشْتَدَّ لهَبُها واشْتَعلت» (ابن منظور، 2009، ص 6747). وأطلقت على الشمس اسم ذكاء، وكنّت عن الصبح بابن ذكاء. وضربت الأمثال كقولها أضاءت الذكاء وانتشر الرعاء.

وقد سعت العرب إلى فهم الذكاء، من حيث هو متصوّر مجرّد، من خلال النار، من حيث هي متصوّر حسّيّ. فنقلوا معارفهم الغنيّة حول النار إلى الذكاء «عبر الروابط العصبيّة» (Raymond W. Gibbs, 2017, p. 31)، وترتّب على ذلك ترحيل بنية النار اللغويّة وبنيتها الاستنتاجيّة، إلى الذكاء، فانتشرت تعابير كلاميّة عديدة، جاءت في عدّة أشكال لغويّة مختلفة. ويمكن أن نسوق أبرزها في الجدول الآتي:

التصوّر الاستعاريّ	التعبير الاستعاريّ
الذكاء نور	شعاع الذكاء/ أضاء ذكاؤه.
الذكاء نار	استطار شرر الذكاء فكره/ نار الذكاء/ يتوقد ذهنه من الذكاء والفطنة/ خمدت نيران الذكاء/ الذكاء توقد جمرا....
الذكاء شعلة	شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتدم جوانبه
الذكيّ شعلة	اقتبست من نور علمه/ هو قبس في العلم.

20-3.indd 37 8/30/2023 8:44:44 PM

يتّضح من خلال هذا الجدول أن التصوّر الاستعاريّ الذكاء نار هو التصوّر الأبرز داخل النسق التصوّريّ الذكاء رؤية، ثم يليه التصوّر الاستعاريّ الذكيّ شعلة. ولذلك فإنّ التصوّر الاستعاريّ الذكاء نور يحدّد النسق الذكاء رؤية ويخصّصه متى تعلّق الأمر بالتفكير في الذكاء، ويخصّص التصوّر الاستعاريّ الذكيّ شعلة النسق كلّه متى تعلّق الأمر بالتفكير في الذكيّ.

وتبدو هذه التعابير الكلاميّة عند النظر إليها للوهلة الأولى كأنّها تعبيرات معزولة واعتباطيّة، ولكنّها ليست من الصدفة في شيء (لايكوف وجونسون، 2016، ص 322)، فهي منسجمة انسجاما تامّا لكونها، من جهة، تشكّل جزءا من كلّ، هو النسق الاستعاريّ الذكاء رؤية، ومن جهة أخرى، فهي مجتمعة، تخدم ذلك النسق.

ويعدّ النسق التصوّريّ الذكاء رؤية، بمختلف تصوّراته الاستعاريّة، طريقة في التفكير، لذلك لم يبق سجين التعبيرات الكلاميّة، بل توسّع ليشمل الخطاب. ومن أجناس الخطاب تلك أخبار الأذكياء. وسنكتفي بالنظر في التصوّريْن الاستعاريّيْن المهيمنيْن لبيان ذلك.

1. التصوّر الاستعاريّ الذكاء نور:

هيمن التصوّر الاستعاريّ الذكاء نور في العديد من أخبار الذكاء والأذكياء. ويمكن توضيح ذلك انطلاقا من الخبريْن الآتيّيْن:

* الخبر 1: «دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقرّ الله عينك، وفرّحك بما آتاك، وأتمّ سعدك. لقد حكمت فقسطت. فالتفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلّا خيراً. قال: ما أظنّكم فهمتم ذلك، أمّا قولها أقرّ الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأمّا قولها، وفرّحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً» (سورة الأنعام، الآية 44). وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر [المتقارب]:

إذا تمّ أمر بدا نقصه ترقّب زوالا إذا قيل تمّ

وأمّا قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» (سورة الجنّ، الآية 15). فتعجبوا من ذلك» (الأبشيهي، 2009، ص 112).

يُفهم الذكاء في هذا الخبر بوصفه نورًا، بناء على وجود مجموعة من التناسبات (Correspondences)، بين الذكاء من جهة بوصفه المجال الهدف، والنور من جهة أخرى بوصفه المجال المصدر. ويمكن توضيح أبرز تلك التناسبات في الجدول الآتي:

20-3.indd 38 8/30/2023 8:44:44 PM

تصوّر النور: المجال المصدر	تصوّر الذكاء: المجال الهدف
إضاءة المكان المظلم	إضاءة العلامات اللسانيّة وغير اللسانيّة المبهمة
توضيح الرؤية لحاسّة البصر	توضيح الرؤية للذهن
التركيز البصريّ	الانتباه الذهنيّ
حدّة الإبصار	حدّة الذكاء
تمكين الرائي من إدراك حقيقة الموجودات والأشياء	تمكين الذكي من إدراك حقيقة الخطابات والمقاصد
تمكين الرائي من التفاعل مع تلك الموجودات حسب السياق.	تمكين الذكي من التفاعل مع تلك الخطابات بما يناسب سياقاتها.
حجب النور	عوائق الذكاء

إنّ خصائص النور الواردة في الواد الأوّل تُرسّم خصائص الذكاء الواردة في الواد الثاني. ويظهر الذكاء في خطاب المرأة في إدراكها لطبيعة السياق، فقد أنار لها الذكاء مختلف العناصر السياقيّة، وحفّزها على الانتباه الذهنيّ في كلّ ما تقول وتفعل، فهي تخاطب خليفة في مجلسه، وبين أصحابه، وكان قد عاقب قومها. وحملها الذكاء على جعل خطابها ذا طبقتيْن: طبقة ظاهرة تتمثّل في المعطى، وطبقة ضمنيّة تتمثّل في المضمر. ونهض المعطى بوظيفة حجب النور، والإبقاء على المضمر في العتمة. فعرقل فهم السامع وأبقى المضمر مجهولا وغير مرئيّ. وقد آتى ذكاء المرأة أكله، فوقف فهم الخطاب لدى الحاضرين في مجلس الخليفة عند حدود المعطى، وفهموا من الخطاب ظاهره، ومفاده أنّه دعاء للخليفة.

وظهر الذكاء في خطاب الخليفة في رؤية المضمر في خطاب المرأة. فقد استعان الخليفة بمظهر من مظاهر الذكاء تمثّل في حدّة الفهم، لينير ما أظلم من خطاب المرأة وأشكل، فربط العلامة اللسانيّة «قرّ» بمعانيها الأُول، وردّ علامات لسانيّة أخرى إلى مصادرها القرآنيّة والشعريّة. فوصل إلى المضمر المتمثّل في الدعاء عليه بما لم يدع به أحد عليه من قبلُ.

وهكذا أضاء الذكاء للمرأة مختلف العناصر السياقيّة، فنسجت خطابها على مقاس السياق، وأضاء للخليفة ما أظلم من خطاب المرأة، فرأى حقيقة مقاصدها. ولمّا حجب الذكاء نوره عن الحاضرين في مجلس الخليفة بقوا في جهالتهم يعمهون.

20-3.indd 39 8/30/2023 8:44:45 PM

وعلى هذا النحو فإنّ هذا الخبر الأدبيّ لا يزيد في ظاهره عن الإخبار بما كان من أمر الذكاء، وفي باطنه نسق وتصوّر استعاريّيْن. وهو تجلّ خطابيّ للتصوّر الاستعاريّ الذكاء نور. ولعلّ التصوّر الاستعاريّ الذكيّ شعلة يدعم هذا التوجّه التصوّريّ.

2. التصوّر الاستعاريّ الذكيّ شعلة:

مثّل التصوّر الاستعاريّ الذكيّ شعلة العمق العرفانيّ في العديد من أخبار الذكاء والأذكياء، ودونك الخبران الآتيان بيانا لذلك:

* الخبر 1: «حدّثنا صالح بن أحمد العجلي قال حدّثني أبي قال دخلت على إياس بن معاوية ثلاث نسوة، فقال: أمّا واحدة فمرضع والأخرى بكر والثالثة ثيب. فقيل له: من أين علمت؟ قال: أمّا المرضع فإنّها لمّا قعدت أمسكت ثديها بيدها، وأمّا البكر فلمّا دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأمّا الثيب فلمّا دخلت رمقت بعينها يميناً وشمالا» (ابن الجوزي، 2009، ص 69).

* الخبر 2: «ذُكر عن الفتح بن خاقان أنّه كان مع المتوكّل، فرمى المتوكّل عصفوراً فأخطأه. فقال: أحسنت يا أمير المؤمنين. فنظر إليه نظرة منكرة. فقال: إلى الطائر حتى سلم. فضحك المتوكّل» (الحصري، 2009، ص 11).

يُفهم تصوّر الذكيّ في هذيْن الخبريْن، من حيث هو تصوّر مجرّد، من خلال تصوّر شعلة، من حيث هو تصوّر حسّيّ. وتوجد بين التصوّريْن تناسبات عدّة، فالشعلة تُصدر نورا، والنور يبدّد الظلام، فتتّضح حقيقة الأشياء والموجودات. وكلّ ذلك يناسب الذكيّ، فهو يُصدر الفطنة، والفطنة تبدّد الغموض، فتتّضح حقيقة الأشياء والعلامات.

ويعدّ إياس في الخبر الأوّل نموذج الذكيّ، وقد أظلم عليه أمر النسوة، وازداد الأمر غموضا بالتزامهنّ الصمت. وكان إياس حريصا على تحصيل ما أمكن من المعلومات حول المتقاضين في مجلسه. فاستعان بمظهرين من مظاهر الذكاء: تمثّل المظهر الأوّل في الفطنة، فقد التقط إياس العلامات غير اللسانيّة المتمثّلة في مسك المرأة الأولى ثديها بيدها، وعدم التفات الثانية، ونظر الثالثة إلى جانبيها. وتمثّل المظهر الثاني من الذكاء في الاستدلال، فقد انطلق إياس من تلك العلامات غير اللسانيّة وعمد إلى تسييقها (Contextualisation) في السياق الثقافيّ للمرأة العربيّة المسلمة، فوصل إلى نتائج تحدّد حالة كلّ امرأة اجتماعيّا.

وأمّا في الخبر الثالث فيعدّ الفتح بن خاقان نموذج الذكيّ. وقد أظلم عليه الأمر بعد أن نظر إليه المتوكّل شزرًا، فوجد نفسه في أضيق من جحر الضبّ. فاستعان بمظهر من مظاهر الذكاء تمثّل في سرعة البديهة، ليُنير لنفسه مسالك الخروج من المأزق. فتلاعب بدلالة الفعل «أحسن»، وغيّر مجراها من الوقوع على الفاعل «أنت»، إلى الوقوع على المفعول به «العصفور». فنجا بنفسه بعد أن سكن غضب المتوكّل.

20-3.indd 40 8/30/2023 8:44:45 PM

يبدو هذيْن الخبريْن منشدّيْن في عمقهما التصوّريّ إلى التصوّر الاستعاريّ الذكيّ شعلة. فالقاضي إياس في الخبر الأوّل أنار لنفسه وصحبه ما أشكل من أمر النسوة، والفتح بن خاقان في الخبر الثاني أضاء لنفسه مسلك النجاة من عقاب محتمل من المتوكّل. فتحوّل الخبران من مجرّد إخبار بما كان من أمر الأذكياء إلى تجلّ خطابيّ لتصوّر استعاريّ الذكيّ شعلة، وانتشار له في مستوى الخطاب.

ولئن كانت هذه النماذج الأخباريّة مختلفة فيما بينها من حيث مكوّناتها السرديّة المتمثّلة في الأعمال والشخصيّات والأمكنة والأزمنة، فإنّها تظلّ منسجمة من حيث انشدادها إلى نسق تصوّريّ واحد الذكاء رؤية. وقد نهض ذلك النسق التصوّريّ بأبرز وظائفه المتمثّلة في «تمثيل التجربة تمثيلا ذهنيّا كاملا، والتمكين من فهما» (Zoltan Kovecses, 2015, p. 32)، وهي تجربة الذكاء والأذكياء. وإذا كانت أخبار الذكاء والأذكياء قد كشفت النسق التصوّريّ المتعلّق بالمكوّن الذهنيّ لدى الإنسان، فما الأخبار الأدبيّة المتعلّقة بالمكوّن النفسيّ؟ وما النسق التصوّريّ المتحكّم فيها؟

ثانيا- أخبار العشق والعشّاق ونسق العشق داء:

يفيد تصوّر العشق، حسب مقتضيات الفلسفة الموضوعيّة، معنى فرط الحبّ، وعُجب المحبّ بالمحبوب. «وهو مُشتَقٌّ من العَشَقة، وهي شَجَرة تُسَمَّى اللبْلاب تَخْضَرُّ ثم تَصفَرُّ وتَذْوي» (ابن سيده، 2009، ص 685). ومن معانيه السياقيّة أنّه مرض يعتري النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة. وأمّا علاجه فمختلف فيه، رغم ميل بعضهم إلى أنّ العشق يقطع الأوصال ولا يفيد فيه إلّا الوصال. وأمّا عن حدوده، فقيل أوّل العشق النظر، وأوّل الحريق الشرر. ويلتقي تصوّر العشق مع عديد التصوّرات المجاورة في بعض المعينات، ويتّخذ درجته بينها، فقد قيل «الحبّ أوّله الهوى، ثم الكلف ثم الوجد، ثم العشق ثم الجوى، وهو الهوى الباطن والتيتيم والسبل والهيام، وهو شبيه الجنون» (بهاء الدين العاملي، 2009، ص 469).

ويفيد تصوّر العاشق معنى لزوم الشيء وعدم مفارقته. و«سمي العاشِقُ عاشِقاً لأَنّه يَذْبُلُ من شدّة الهوى كما تَذْبُل العَشَقَةُ إذا قطعت» (ابن منظور، 2009، ص 12918). ومن علامات العاشق «غور العينين وجفافها، وسمن الجفن مع قلّة الحركة والسهر، وهزل البدن، واختلاف النبض عند ذكر الحبيب» (ياسين الخطيب، 2009، ص 241).

إنّ هذه التعريفات المتعلّقة بتصوّريْ العشق والعاشق ليست إلّا انعكاسا لواقع مستقلّ عن الذهن. فبقي «لمعانيهما جانب حرفيّ مُفقر» (جورج لايكوف ومارك جونسون، 2016، ص 244). ويقتضي فهمُ هذين التصوّريْن المجرّديْن، التفكيرَ فيهما استعاريّا، من خلال تصوّرات أخرى حسّيّة أو أقلّ تجريدا. ورغم اختلاف الباحثين حول وجود تصوّر استعاريّ يتنزّل منزلة «سيد استعارة العاطفة»

20-3.indd 41 8/30/2023 8:44:45 PM

(Master metaphor for emotion) (Zoltan Kovecses, 2008, p. 382) بسبب تنوّع العواطف، فإنّه يمكن الانطلاق من نسق تصوّريّ غنيّ وواسع ينتظم تصوّريْ العشق والعاشق، ويمكن الاصطلاح عليه بنسق العشق داء. وهو يتضمّن عددا كبيرا من التصوّرات الاستعاريّة، منها ما تعلّق بالعشق نحو، العشق داء والعشق نار والعشق خمرة والعشق خدعة، والعشق رحلة، ومنها ما تعلّق بالعاشق، نحو العاشق مجنون والعاشق قتيل. وهي جميعها من قبيل التصوّرات الاستعاريّة التواضعيّة لكونها جزءا من كلّ، هو النسق التصوّريّ العشق داء.

وتتّصل نسقيّة نسق العشق داء بحقيقة متعلّقة بالداء، واقتضاء يترتّب عليها. فالداء علّة، والعلّة خللٌ في بنية الإنسان بدنيّا أو ذهنيّا أو نفسيّا. ويترتّب على ذلك الاقتضاء الآتي:

- العشق داء.
- الداء خلل في بنية الإنسان بدنيّا أو ذهنيّا أو نفسيّا.
- العشق خلل في بنية الإنسان بدنيّا أو ذهنيّا أو نفسيّا.

ويستند نسق العشق داء إلى أربعة أسس: وجدانيّ واجتماعيْ وثقافيّ وعلميّ. يتعلّق الأساس الوجداني بتجربة العربيّ قديما، فقد جرّب العشق وبلغ فيه منازل قصيّة وعانى منه الويلات والثبور وعظائم الأمور. ويتعلّق الأساس الاجتماعيّ بوجود العشّاق في المجتمع العربيّ القديم، وخصوصا منهم المجانين والصرعى، وقد سارت بأخبارهم الركبان، وضربت ببعضهم الأمثال، نحو عروة بن حزام. ومردّ الأساس الثقافيّ إلى ما ترسّب في الذاكرة الجمعيّة عند العرب القدامى من أنّ العشق يُلحق بصاحبه ألوانا من الخلل في كلّ بناه الجسديّة والنفسيّة والذهنيّة، فـ»صريعُه دائم اللوعة، ضيق المتنفّس، مُشَارف الزمن، طويل الفكر، إذا أجَنَّه الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى» (المسعودي، 2009، ص 1350). ويلتقي هذا الأساس الثقافيّ مع ما ورد في الثقافة اليونانيّة، فقد قال سقراط: «العشق جنون، وهو ألوان، كما أنّ الجنون ألوان» (السرّاج القارئ، 2009، ص 47). وأمّا الأساس العلميّ فيتّصل بما ذهب إليه بعض الحكماء من أنّ العشق «ضرب من الماليخوليا، والجنون والأمراض السوداوية» (بهاء الدين العاملي، 2009، ص 1308).

وقد تسرّبت تلك التصوّرات الاستعاريّة المكوّنة لنسق العشق داء إلى كلام العربيّ، فتجلّت في تعابيره اللغويّة في مختلف الأشكال النحويّة، ويمكن إيراد أبرزها في الجدول الآتي:

20-3.indd 42 8/30/2023 8:44:46 PM

التصوّر الاستعاريّ	التعبير الاستعاريّ
العشق داء	بكيت أهل العشق رحمة/ يشكو العشق/ لم أر أشدّ تهالكا في العشق منه/ ما في قلبه من العشق أعماه عن الرأي/ هو في دجم العشق والهوى/ العشق يقطع الأوصال ولا يفيد فيه إلّا الوصال/ ما بليت به من العشق والهيان/ علاج العاشق ماء السلوان/ غصّة العشق/ أوهن العشق قواه حتى تلف أو كاد أن يتلف/ عمده العشق/ العشق داء عضال لا دواء له/ العشق مرض قلب ضعف/ نعوذ بالله من آفة العشق وفتنته/ العشق يَختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة/ الحبّ -أعزّك الله- داء عياء، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة.
العشق نار	وما العشق إلّا النار توقد في الحشا.
العشق خمرة	سكر العشق أعظم من سكر الخمر.
العشق خدعة	العشق حِبَالةٌ نَصَبَهَا الدهر.
العشق رحلة	طريق العشق والهوى/ وصل في العشق إلى مرمى بعيدا.
العاشق مجنون	إن لم يكن العشق ضرباً من السّحر إنّه لسعةٌ من الجّنون/ جننه العشق/ زال عقله من العشق/ مع ما فيه من العشق والجنون/ مجنون من العشق/ لم يكن المجنون مجنونا، وإنّما جنّنه العشق.
العاشق قتيل	قتله العشق/ دمع العاشق ودم الشهيد متساويان في التشبيه والتمثيل.

يتّضح من خلال الجدول أعلاه «أنّ التعبيرات الاستعاريّة لم تعد مجرّد كلمات، وإنّما هي تعبيرات تصوّريّة نستخدمها للفهم» (George Lakoff, Women, 1987, p. 415). ويبدو أنّ التصوّر الاستعاريّ العشق داء هو التصوّر المهيمن في النسق التصوّريّ العشق داء، ثم يليه في الهيمنة التصوّر الاستعاريّ العاشق مجنون. فيخصّص التصوّرُ الاستعاريُّ العشق داء النسقَ كلّه متى تعلّق الأمر بالتفكير في العشق، ويخصّص التصوّر الاستعاريّ العاشق مجنون النسق كلّه متى تعلّق الأمر بالتفكير في العاشق. والملاحظ أنّ التعابير الكلاميّة سواء المتّصلة باستعارة العشق داء أو استعارة العاشق مجنون منسجمة فيما بينها لكونها مجرّد أجزاء، يحيل كلّ منها على النسق الاستعاريّ ويخصّصه من حيث هو كلّ.

ولم يمكث النسق الاستعاريّ العشق داء بمختلف تصوّراته الاستعاريّة رهين التعبيرات الكلاميّة، لكونه نمطا في التفكير، فتمدّد ثمّ توسّع ليشمل أنوعا عدّة من الخطابات، من بينها أخبار العشق والعشّاق. وسنقتصر على التصوّريّن الاستعاريّين المهيمنين في هذا النسق لبيان ذلك:

20-3.indd 43 8/30/2023 8:44:46 PM

1. التصوّر الاستعاريّ العشق داء:

خضعت أخبار العشق لتصوّر استعاريّ خفيّ، نوضّح كيفيّة اشتغاله من خلال الخبر الآتي: «وإنّي لأعرف جارية اشتدّ وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، وكثر غمّها وطال أسفها إلى أن ضنيت بحبه، وهو بغرارة الصبي لا يشعر. ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه لأنّها كانت بكراً بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعلّه لا يوافقه. فلمّا تمادى الأمر وكانا إلفين في النشأة، شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأي كانت تثق بها لتولّيها تربيتها، فقالت لها: عرّضي له بالشعر. ففعلت المرّة بعد المرّة وهو لا يأبه في كل هذا، ولقد كان لقناً ذكياً لم يظن ذلك، فيميل إلى تنتيش الكلام بوهمه، إلى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين، ولقد كان يعلم الله عفيفاً متصاوناً بعيداً عن المعاصي، فلمّا حان قيامها عنه بدرت إليه فقبّلته في فمه ثم ولّت في ذلك الحين ولم تكلّمه بكلمة، وهي تتهادى في مشيها. فبهت وسقط في يده وفتّ في عضده ووجد في كبده وعلته وجمة، فما هو إلّا أن غابت عنه ووقع في شرك الردى واشتعلت في قلبه النار وتصعدت أنفاسه وترادفت أرجاله وكثر قلقه وطال أرقه، فما غمض تلك الليلة عيناً، وكان هذا بدء الحبّ بينهما دهراً، إلى أن جذت جملتها يد النوى. وإنّ هذا لمن مصائد إبليس ودواعي الهوى التي لا يقف لها أحد ألّا من عصمه الله عزّ وجلّ» (ابن حزم، 2009، ص 86).

يُفهم العشق في هذا الخبر من جهة كونه داء عياء، بسبب وجود تناسبات عدّة، بين العشق من جهة بوصفه المجال الهدف، والداء من جهة أخرى بوصفه المجال المصدر. ويمكن إيراد أبرز تلك التناسبات في الجدول الآتي:

تصوّر الداء: المجال المصدر	تصوّر العشق: المجال الهدف
تعدّد الأعراض واختلافها باختلاف الأدواء	- الغمّ/ الضنى/ الضيق/ فقدان السيطرة. - تصاعد الأنفاس/ ترادف الأرجال/ القلق/ الأرق.
التمكّن من المريض	- فقدان السيطرة - الوقوع في الشرك.
معاناة المريض	- نفاذ الصبر. - وجد في كبده وعلته وجمة.
الزوال عن طريق الدواء	- الشفاء عن طريق الوصال.

20-3.indd 44 8/30/2023 8:44:46 PM

يُمكن إسقاط عناصر الداء الواردة في الواد الأوّل على ما يناسبها من عناصر العشق الواردة في الواد الثاني. فيناظر العشق الداء، ويناظر الفتى والجارية المريضيْن. وأمّا أعراض الداء فمختلفة. فقد أصاب العشق الجارية نفسيّا، فأغمّها، وأصابها جسديّا فأضناها، وأصابها ذهنيّا فمنعها التمييز بين المباح والمحظور، وجرّأها على حدود الله. وحلّ العشق بالفتى، فأصابه بالحيرة نفسيّا، والأرق جسديّا، والقلق ذهنيّا. وكان الدواء ممّا حلّ بالجارية والفتى من داء العشق، الوصال عن طريق الزواج.

وقد عمد الراوي إلى البنية اللغويّة في الداء، مثل كثر غمّها/ طال أسفها إلى أن ضنيت/ عيل صبرها/ ضاق صدرها/ لم تمسك نفسها/ بهت/ سقط في يده/ وفتّ في عضده/ وجد في كبده وعلته وجمة/ تصعدت أنفاسه/ ترادفت أرجاله/ كثر قلقه/ طال أرقه/ ما غمض تلك الليلة عينا، ونقلها إلى العشق. فيكون قد فكّر في العشق استعاريّا من خلال الداء.

ولئن بدا هذا الخبر في ظاهره إخبارا بما كان من أمر العشق بين الفتى والجاريّة، فإنّه في باطنه منشدّ إلى تصوّر استعاريّ مفاده أنّ العشق داء، فقد أدخل العشق على الجارية والفتى ما به اختلت وظائف المكوّنات الأساسيّة لديهما، وصيّرهما في حاجة حتميّة إلى علاج مّا. فتحوّل هذا الخبر تجلّيّا خطابيّا لذلك التصوّر الاستعاريّ. ولعلّ التصوّر الاستعاريّ العاشق مجنون يعزّز هذا الأمر.

2. التصوّر الاستعاريّ العاشق مجنون:

تسرّب التصوّر الاستعاريّ العاشق مجنون إلى أخبار العشق والعشّاق. ويمكن توضيح ذلك من خلال الخبر الآتيّ: «حكى الأصمعي: قال: بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت [الطويل]:

أيا معشر العشّاق بالله خبّروا إذا حلّ عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته:

يداري هواه ثم يكتم سره ويخشع في كل الأمور ويخضع

ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته:

فكيف يداري والهوى قاتل الفتى وفي كلّ يوم قلبه يتقطّع

فكتبت تحته:

إذا لم يجد صبراً لكتمان سرّه فليس له شيء سوى الموت أنفع

20-3.indd 45 8/30/2023 8:44:46 PM

ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شابّا ملقى تحت ذلك الحجر ميتا، لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وقد كتب قبل موته:

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلّغوا سلامي إلى من كان للوصل يمنع» (الأبشيهي، 2009، ص 1015).

يعنينا في هذا الخبر، بصرف النظر عن التداخل بين عناصر التخييل والعناصر المرجعيّة، وتطوّر السرديّة فيه، تصوّر العاشق. فهو يُفهم عن طريق إسقاط خاصّيات المجنون عليه. ونشأت بين التصوّريْن مجموعة من التناسبات. فالعاشق يناسب المجنون، وطلب الاستشارة يناسب البحث عن علاج من الجنون، وقتل النفس يناسب الجنون. وقع الشابّ في العشق، وشرع يبحث عن دواء. ولكنّه حاجّ الراوي في العجز عن الصبر وتحمّل الصدود، ثمّ أطاعه في المشورة، فبات في الفلاة مجندلا.

ولا يُفهم ما أقدم عليه الشابّ استعاريّا إلّا بوصفه جنونا، فالمجنون لا يبالي بما يفعل نظرا إلى تراجع ملكة التمييز لديه. فقد تضخّمت نازعة العشق لدى الشابّ إلى درجة تعطّل معها العقل، وهيمنت العاطفة، فلم يعد قادرا على التمييز بين الحسن والقبيح والخير والشرّ والحلال والحرام. فاقترف ما يمتنع العاقل عن اقترافه، ويُفهم عشقه على أنّه جنون.

ويبدو هذا الخبر في ظاهره إخبارا بما كان من أمر الشابّ العاشق، ولكنّه في باطنه تصوّر استعاريّ مفاده أنّ العاشق مجنون. وعلى هذا النحو يُنظر إلى العاشق عند التفكير فيه تفكيرا استعاريّا على أنّه مجنون، ويُنظر إلى الخبر الأدبيّ على أنّه تجلّ خطابيّ للتصوّر الاستعاريّ العاشق مجنون.

وإذا كانت أخبار العشق والعشّاق قد كشفت النسق الاستعاريّ المتعلّق بالمكوّن النفسيّ والوجداني لدى الإنسان، فما الأخبار الأدبيّة المتعلّقة بالمكوّن السلوكيّ والقيميّ؟ وما النسق الاستعاريّ المتحكّم فيها؟

ثالثا: أخبار التطفيل والطفيليّين ونسق التطفيل إغارة

يفيد تصوّر التطفيل في معناه الحرفيّ، معنى إقبال الليل على النهار بظُلْمته، «وطَفَلُ العَشيّ، آخرُه عند غروب الشمس واصفرارها، يقال: أتيته طَفَلاً وعِشاءً طَفَلا، وطَفَلَت الشمسُ تَطْفُلُ طُفولا وطَفَّلَتْ تطفيلا، هَمَّت بالوجوب ودَنَتْ للغروب ويقال: طَفَّلَت تَطْفيلا إذا وقع الطَّفَل في الهواء وعلى الأرض وذلك بالعَشيّ» (ابن منظور، 2009، ص 2835). ويدلّ في بعض معانيه السياقيّة على إتيان الطعام من غير دعوة، ويدلّ في سياقات أخرى على أن يُؤكل على أنّه آخر الزاد، فيُؤتى على الدقّ والجلّ.

20-3.indd 46 8/30/2023 8:44:47 PM

ويحيل تصوّر الطفيليّ على كلّ من يأتي الطعام من غير أن يُدعى إليه، لكونه «يُظْلِمُ على القوم أَمرُه فلا يدرون مَن دَعاه ولا كيف دَخَل إليهم» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 26). وهو يُطلق على «رجل من أهل الكوفة من بني غطفان، وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، فكان يقال له طفيل الأعراس والعرائس» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 46). ويلتقي تصوّر الطفيليّ مع تصوّرات أخرى من قبيل فلحس والوارش والرائش والواغل.

ولكنّ هذه التعريفات لتصوّريْ التطفيل والطفيليّ تقتصر على وجوه التطابق بين التصوّر المجرّد وما يطابقه في الواقع. وهي «مفقرة إلى حدّ أنّه يصعب استخلاص استنتاجات دالّة منها» (لايكوف وجونسون، 2016، ص 251). ولذلك فإنّ فهم هذيْن التصوّريْن على نحو دقيق يقتضي التفكير فيهما استعاريّا، وذلك بالقبض عليهما من خلال تصوّرات أخرى حسّيّة، أو أقلّ تجريديّة. ويتحقّق ذلك بالنظر إلى النسق التصوّريّ الواسع في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ومفاده أنّ التطفيل إغارة. وهو يتكوّن من عدد من الاستعارات، منها ما تعلّق بالتطفيل من حيث هو عمل، نحو التطفيل إغارة والتطفيل سرقة والتطفيل شخص والتطفيل صناعة، ومنها ما تعلّق بالطفيليّ من حيث هو الشخصيّة القائمة بعمل التطفيل، مثل الطفيليّ سارق والطفيليّ مغير والطفيليّ شخص مذموم.

ويستمدّ نسق التطفيل إغارة نسقيّته من حقيقة واقتضاء. تتعلّق الحقيقة بالإغارة، فهي سرقة، والسرقة استحواذ على ممتلكات الآخرين. ويترتّب على ذلك الاقتضاء الآتي:

- التطفيل إغارة.
- الإغارة سرقة.
- إذن التطفيل سرقة.

ولهذا النسق أساسان: اجتماعيّ وثقافيّ. يتّصل أوّلهما بالمحيط الاجتماعيّ، فالعربيّ قديما شهد التطفيل وعرف الطفيليّين، وتواصل معهم في سياقات مختلفة. فالتطفيل ممارسة وسلوك في المجتمع، والطفيليّون فئة من الناس لا يخلو منهم أيّ مجتمع. ويتّصل الأساس الثاني بنظام القيم الثقافيّة، فقد نزّل العربيّ التطفيل ضمن الرذائل، فذمّ البخل ونفر من البخلاء. وتدعّم هذا التوجّه الثقافيّ بالحديث النبويّ الشريف: «من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص-ص 61 - 62). وكذلك الحديث: «من دخل على قوم لطعام لم يدع إليه فأكل، دخل فاسقا وأكل ما لا يحل» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 17). وتعزّز هذا الأساس الثقافيّ بمواقف بعض الأعلام من البخل والبخلاء، فقد قال ابن عمر: «من جاء إلى طعام لم يدع إليه دخل غاصبا وأكل حراماً

20-3.indd 47 8/30/2023 8:44:47 PM

وخرج مسخوطاً عليه» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 17). وقال عطاء ابن أبي رباح: «من دخل إلى طعام من غير أن يدعى إليه دخل فاسقا وأكل سحتا» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 18).

وقد شقّ النسق التصوّريّ التطفيل إغارة، بمختلف تصوّراته الاستعاريّة، طريقه إلى كلام العربيّ، فظهر في تعابير كلاميّة مختلفة، نسوق أهمّها في الجدول الآتي:

التصوّر الاستعاريّ	التعبير الاستعاريّ
التطفيل إغارة	أوقد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل؟/ أوغل في التطفيل/ التطفيل من اللؤم
التطفيل شخص	يد التطفيل/ يا وارث التطفيل/ هذا رأس التطفيل
الطفيليّ شخص مذموم	طفيليّ ويحلس في الصدر/ طفيليّ ويقترح/ من الكبائر طفيليّ يدبّ/ انظروا إلى يد الكشحان كأنها في الرقعة

يتبيّن من الجدول أعلاه هيمنة التصوّر الاستعاريّ التطفيل إغارة، ثم يليه في الهيمنة التصوّر الاستعاريّ الطفيليّ شخص مذموم. وهما تصوّران منسجمان، حيث يخصّص التصوّر الاستعاريّ التطفيل إغارة النسق كلّه عند التفكير في التطفيل، ويخصّص التصوّر الاستعاريّ التطفيل شخص مذموم النسق كلّه، عند التفكير في الطفيليّ. ولا تخلو جميع التعابير الكلاميّة من الانسجام لكونها تحيل على النسق ذاته، وتتنزّل منه منزلة الجزء من الكلّ.

ولمّا كان النسق التصوّريّ التطفيل إغارة، نمطا في التفكير، فإنّه سرعان ما تجاوز حدود التراكيب الجزئيّة أو الإسناديّة ليشمل أنواعا عدّة من الخطاب، ومن تلك الخطابات أخبار التطفيل والطفيليّين. وسنقتصر على بيان التصوّريْن الاستعاريّيْن المهيمنيْن من خلال نماذج من تلك الأخبار.

1. التصوّر الاستعاريّ التطفيل إغارة:

تعدّ استعارة التطفيل إغارة، الاستعارة المركزيّة عند الحديث عن التطفيل، وهي تمثّل العمق العرفانيّ فيما لا يُحصى من أخبار التطفيل. ومن ذلك هذا الخبر: «مرّ طفيلي بقوم يأكلون، فقال لهم: ما تأكلون؟ فقالوا: سمّا، قال: لا خير في الحياة بعدكم، وجعل يأكل معهم» (ابن عاصم، 2009، ص 157).

يُفهم تصوّر التطفيل في هذا الخبر من خلال تصوّر الإغارة. فتظهر مجموعة من التناسبات بين التصوّريْن، يمكن إجمالها في الجدول الآتي:

20-3.indd 48 8/30/2023 8:44:47 PM

تصوّر الإغارة: المجال المصدر	تصوّر التطفيل: المجال الهدف
الهجوم على الآخرين دون سابق إعلام	إتيان الطعام دون سابق دعوة
الاستيلاء على ممتلكات الغير	الظفر بنصيب من الطعام كرها.
استعمال السلاح وحجّة القوّة.	استعمال الخطاب وقوّة الحجّة
عدم المبالاة بردود أفعال الآخرين	عدم المبالاة بمواقف المدعوّين وأصحاب الطعام.

تُرسّم عناصر الإغارة الواردة في الواد الأوّل عناصر ما يناسبها من عناصر التطفيل الواردة في الواد الثاني. فالتطفيل في هذا الخبر يناسب الإغارة، والطفيليّ يناسب المغير. وقد تجلّت الإغارة، في خطاب الطفيليّ وسلوكه. ويقتضي إطار الإغارة، وجود مغير، والنهب والسلب باستعمال سلطة القوّة، ومغير عليه، يكون ضحيّة وكارها للمغير ناقما عليه، ولكنّه لا يجد سبيلا إلى ردّه ومنعه. والطفيليّ في هذا الخبر أغار على طعام القوم، بإصراره على مشاركتهم إيّاه، وقد استعمل قوّة الحجّة وسلطة الخطاب، حيث أقام صلة بينه وبينهم تنفي كلّ قيمة للحياة بعد موتهم. وكان القوم كارهين لمشاركتهم الطفيليّ الطعام، ففي الكناية عن الطعام بكونه سمّا دليل على بغض الطفيليّ والنفور منه، ولكنّهم وجدوا أنفسهم في حجر محجور. وقد يعزّز التصوّر الاستعاريّ الطفيليّ سارق هذا المنحى التصوّريّ في النظر إلى أخبار التطفيل والطفيليّين.

2. التصوّر الاستعاريّ الطفيليّ سارق:

تعدّ استعارة الطفيليّ سارق الاستعارة المركزيّة الثانية، وجزءا من النسق التصوّريّ المتعلّق بالتطفيل والطفيليّين. وقد تواترت في عديد الأخبار، ومنها الخبر الآتي: «حدّثني محمّد بن علي بن عبيد الله الكرخي، قال: مُنع طفيلي عن عرس، فذهب فأخذ إحدى نعليه في كمّه، وعلق الأخرى بيده، وأخذ خلالا طويلا، فقطعه، وأخذ محلبا من عطار، فلطّخ به أصابعه، وجعل يتخلّل بذلك الخلال الطويل، ودنا من البواب كالمستعجل، فقال له: إنّي أكلت في الفوج الأوّل لشغل كان عليّ، ولاستعجالي أخذت فرد نعل ونسيت الآخر، فتفضّل بإخراجه لي، فقال البواب: أنا مشغول، ادخل فاطلبه لنفسك. فدخل فأكل وخرج» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 16).

يمكن فهم تصوّر الطفيليّ في هذا الخبر انطلاقا من تصوّر السارق، ويستلزم إطار السارق وجود لصّ، ودخول المنازل والمحلّات دون استئذان، وفي غفلة من أصحابها، وأخذ ممتلكات الغير خلسة دون أن يفطنوا لذلك. ويناظر السارقُ الطفيليَّ، فتُرسّم خصائص السارق في شخصيّة الطفيليّ، ويقابل عمل السارق، عمل الطفيليّ، فالطفيليّ يأتي الولائم

20-3.indd 49 8/30/2023 8:44:47 PM

دون أن يُدعى إليها، ويجلس إلى الموائد دون سابق دعوة. ويُظلم أمره على القوم فلا يعرفون من دعاه أو كيف دخل إليهم. والطفيليّ في هذا الخبر «دخل فأكل وخرج»، ولم يتلقّ دعوة ولم يستأذن أحدا. فأخذ طعام صاحب الوليمة خلسة. فهو لصّ. وتتأكّد السرقة بحرصه على ألّا يعرّف بنفسه، حيث أوهم البوّاب بأنّه من المدعوّين.

وهكذا يتّضح أنّ أخبار التطفيل والطفيليّين لم تعد مجرّد سرود للإمتاع والاعتبار، بقدر ما أصبحت تجلّيا خطابيّا لنسق تصوّريّ ثاو في أعماقها، مداره على أنّ التطفيل إغارة.

ولكنّ الطفيليّ يخترق النسق التصوّريّ التطفيل إغارة، المتحكّم في التفكير الاستعاريّ لدى المنتمين إلى الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ويعتمد نسقا تصوّريّا مختلفا كلّيّا، ما فتئ الطفيليّون يدافعون عنه، فقد وورد في عهد التطفيل ما يلي: «وآمره أن يتأمّل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه، ويتصفّحه تصفّح الباحث عن حظّه بمجهوده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده. فإنّ كثيرا من الناس قد استقبحه ممّن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم. فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله. ومنهم من شحّ على ماله، فدافع عنه باحتياله. وكلا الفريقين مذموم لا يتعرّيان من لباس فاضح. ومنهم الطائفة التي لا ترى شركة العنان، فهي تبذله إذا كان لها، وتتدلّى عليه إذا كان لغيرها. وترى أنّ المنّة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد والواغل، وهي أحقّ بالحرّيّة، وأخلق بالخيريّة، وأحرى بالمروة، وأولى بالفتوّة. وقد عُرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل، لأنّه مشتقّ من الطفل. وهو وقت المساء، وأوان العشاء، فلمّا كثر استعمل في صدر النهار وعجزه وأوّله وآخره» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 99). و»قيل لبنان: من دخل إلى طعام من غير أن يدعى إليه، دخل لصّا وخرج مغيرا. قال: ما أكله إلّا حلالا. قيل له: وكيف ذلك؟ قال أليس يقول صاحب الوليمة للخبّاز: زد في كلّ شيء. وإذا أراد أن يطعم مئة قدّر لمئة وعشرين، فإنّه يجيئنا من نريد ومن لا نريد؟ فأنا ممّن لا يريد» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 33).

يكشف ما ورد في عهد التطفيل وكذلك كلام بُنان طبيعة النسق التصوّريّ الذي يستعمله الطفيليّ، ومفاده التطفيل دعوة. ويقوم على استعارتيْن مركزيّتيْن: التطفيل دعوة، والطفيليّ كريم. ويمكن توضيح ذلك من خلال الأخبار الآتية:

- الخبر 1: « أخبرنا أبو بكر أحمد بن سليمان بن علي المقرئ، أخبرنا عبيد الله بن محمد البزاز، أخبرنا جعفر بن محمد بن القاسم، أخبرنا أبو العباس الطوسي، أخبرنا محمد بن سعد، قال: قلت لطفيليّ مرّة: ويلك! تأكل حراما؟ قال: ما أكلت قطّ إلّا حلالا. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لأنّي إذا دخلت دارا لقوم قصدت باب النساء، فيقولون ههنا ههنا، فقولهم: ههنا هو دعوة، فما آكل إلّا حلالا» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 30).

20-3.indd 50 8/30/2023 8:44:47 PM

- الخبر 2: «دخل طفيليّ على قوم فقالوا: ما الذي جاء بك؟ فقال: إذا لم تدعوني أنتم، ولم آت أنا، وقعت بيننا وحشة. فضحكوا منه، وأكل معهم» (ابن عاصم، 2009، ص 104).

- الخبر 3: «حكى المبرد قال: كان بالبصرة طفيليّ مشهور، وكان ذا أدب، فمرّ على قوم عندهم وليمة، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دعي، فأنكره صاحب المنزل، فقالوا له: لو صبرت يا هذا حتى يؤذن لك، لكان أحسن لأدبك، وأجمل لمروءتك، فقال: إنّما اتّخذت البيوت ليدخل فيها، ووضعت الموائد ليؤكل عليها، والحشمة قطيعة، واطّرحها صلة، وقد جاء في بعض الآثار: صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك» (ابن عاصم، 2009، ص 310).

- الخبر 4: «قال الأصمعي: سمع أعربي قوما يذكرون الطفيليّين، فقال: من بنو طفيل هؤلاء؟ فقيل: قوم يأتون الطعام من غير أن يدعوا إليه، فقال: هؤلاء والله قوم كرام» (الخطيب البغداديّ، 2009، ص 29).

قام خطاب الطفيليّيْن في الخبريْن الأوّل والثاني على تبرير التطفيل، وذلك بفهمه استعاريّا بوصفه دعوة. وقد اختلف الطفيليّان في التأويل. فالطفيليّ الأوّل عمد إلى تأويل خطاب المشرفين على الوليمة الهادف إلى توجيهه إلى مكان وجود الرجال خوفا من ولوجه باب النساء، وتأويل ذلك عنده أنّه دعوة إلى الطعام. وأمّا الطفيليّ الثاني فساوى بين الدعوة والقدوم من تلقاء نفسه، خوفا من وقوع القطيعة بينه وبين صاحب الوليمة. ولذلك فالتطفيل دعوة، ولكنّها غير مباشرة.

وتأسّس خطاب الطفيليّ في الخبر الثالث على استعارة الطفيليّ كريم. ولا يظهر الكرم في العطاء الماديّ بقدر ما يظهر في العطاء المعنويّ، فالطفيليّ حريص على إحياء الصلات مع الآخرين، وراغب في تجاوز كلّ مظاهر القطيعة. وحضرت استعارة الطفيليّ كريم في خطاب الأعرابيّ في الخبر الرابع، فقد أقام إطارا للكريم يقتضي العطاء المعنويّ والتواصل مع الآخرين دون أن تصله دعوة منهم.

ولئن انسلكت أخبار الطفيليّين في نسق تصوّريّ مفاده التطفيل إغارة، قصد تقبيح التطفيل وذمّ الطفيليّن، فإنّ الطفيليّ قد وجد نفسه مجبرا على الدخول في حرب استعاريّة ضروس، حرص خلالها على دحض النسق التصوّريّ المناوئ له، والتأسيس لنسق تصوريّ مقابل، يقوم على استحسان التطفيل ومدح الطفيليّن. فاندلع بين الآخذين بقيم الثقافة العربيّة الإسلاميّة من جهة، والطفيليّين من جهة أخرى صراع استعاريّ في الأذهان والأفهام قبل أن يكون صراع أكل على موائد الطعام. والصراع في مستوى التفكير أعمق من الصراع في مستوى الوقائع، لكون «الحروب الاستعاريّة» (Raymond W. Gibbs,

20-3.indd 51 8/30/2023 8:44:48 PM

Jr, 2017, p. 10) أشدّ ضراوة من الحروب العسكريّة. ولعلّ حدّة هذا الصراع تتقلّص عندما يُطوى الكلام في أخبار البخل والبخلاء، ويُنشر في أخبار الظرف والظرفاء. فما النسق التصوّريّ الثاوي في أعماق ذلك اللون من الأخبار الأدبيّة؟

ثالثًا- أخبار الظرف والظرفاء ونسق الطرف ثروة:

يفيد تصوّر الظُرف في معانيه الحرفيّة «البَراعة وذكاء القلب، يُوصَف به الفِتْيانُ الأَزْوالُ والفَتَياتُ الزَّوْلاتُ ولا يوصف به الشيخ ولا السيد، وقيل: الظرفُ حسنُ العِبارة، وقيل: حسن الهيئة، وقيل: الحِذْقُ بالشيء» (ابن منظور، 2009، ص 12080). ويفيد في بعض معانيه السياقيّة الفطنة الممزوجة بالعبادة مع الحذر والتوقّي. ويشترك مع تصوّرات أخرى في بعض المعينات، من قبيل الفكاهة والهزل والملحة والكياسة. وقد عُيّن موضعه، فقيل الظرف موضعه اللسان، وضُبطت حدوده، فقيل الصلف آفة الظرف.

ولتصوّر الظريف معان حرفيّة مفادها البليغ الجيّد الكلام، الحسن الوجه واللسان. وتوجد تصوّرات أخرى تحيل عليه، مع بعض الفوارق في مستوى المعينات، نحو الزول والبزيع والألمعيّ والعمّيت.

ولكنّ هذه التعريفات لا تساعد في فهم تصوّريْ الظرف والظريف على نحو تجريبيّ، لكونها مقيّدة بمدى مطابقة التصوّريْن للواقع الموضوعيّ الكائن خارج أجسادنا. فظلّت للتصوّريْن «بنية حرفيّة عارية» (لايكوف وجونسون، 2016، ص 250). ولذلك فإنّ إكساءهما لحما يقتضي فهمهما على نحو استعاريّ، عن طريق الاستعانة بتصوّرات حسّيّة مستمدّة من تجربة الإنسان الجسديّة مع محيطه الفيزيائيّ وواقعه الاجتماعيّ والثقافيّ. وقد أكّد علم الأعصاب الإدراكيّ أنّ معالجة التصوّرات ترتكز على محرّك حسّيّ ينشّط القشرة الأماميّة في الجهة اليسرى من الدماغ. ومن تلك المحرّكات الحسّيّة ما يعالج تصوّريْ الظرف والظريف، وهو يمثل نسقا تصوّريّا غنيّا، يمكن الاصطلاح عليه بنسق الظرف ثروة.

ويتكوّن النسق التصوّريّ الظرف ثروة من تصوّرات استعاريّة عدّة، منها ما تعلّق بالظرف من حيث هو عمل، نحو الظرف ثروة والظرف شخص والظرف وعاء، ومنها ما تعلّق بالظريف من حيث هو الشخصيّة القائمة بعمل الظرف، مثل الظريف شخص والظريف آلة.

ويستمدّ هذا النسق التصوّريّ نسقيّته من حقيقة واقتضاء. تتّصل الحقيقة بالثروة، فهي أريحيّة في الذهن وانبساط في النفس ودعة في الجسد. وقد قال الثعالبيّ: «الظرف ما هوَ إلا غِذاءُ الحياة ونسيم العيش، وقوّة النفس، ومادّة الأنس» (الثعالبيّ، 2009، ص 54). وأمّا

20-3.indd 52 8/30/2023 8:44:48 PM

الاقتضاء فهو على النحو الآتي:

- الظرف ثروة.
- الثروة أريحيّة وانبساط ودعة.
- إذن الظرف أريحيّة وانبساط ودعة.

ولنسق الظرف ثروة أساسان تجريبيّان: أساس اجتماعيّ، فالمجتمع العربيّ قديما لم يخل من الظرفاء وما يضفونه في حلّهم وترحالهم ومجالسهم ونواديهم من الظرف والفكاهة. وأساس ثقافيّ موصول بنظرة العربيّ إلى الظرف بوصفه خصلة من الخصال المحمودة في الإنسان، وله قيمة كبرى في التواصل، فقد كان يُقال: «لا أعطيك مُلَحِي، وأهَبُك ظَرْفي وأدبي». وهذا فضلا عن كونه دواء للنفس، يحميها من الكلالة والفتور، فقد ورد في الأثر «ساعة وساعة».

وقد تجلّى هذا النسق التصوّريّ بمختلف تصوّراته الاستعاريّة في تعابير كلاميّة مختلفة، نسوق أبرزها في الجدول الآتي:

التصوّر الاستعاريّ	التعبير الاستعاريّ
الظرف ثروة	لا يغرّنكم ظرف الرجل وفصاحته/ يعاشر أهل الظرف/ تمام الظرف واللطف/ له ظرف ولبّ/ ذات ظرف وعقل/ محتاج إلى ظرف اللسان/ معك ظرف ولك لطف/ له ظرف يباين به الناس/ في الظرف كلام حسن وخلق جميل/ صاحب ظرف/
الظرف شخص	ما أغرب الظرف في البادية/ صلم أذن الظرف والوسامة/ عين الظرف والأدب
الظرف وعاء	أبواب الظرف/ أنت ظرف علم ووعاء حلم
الظريف شخص ثري|	كامل في الظرف/ استكمل الظرف وأتمّه/ وجمع له من الظرف ما لم يجمع لغيره/ هو باقعة في الظرف والنوادر/ العشق داء أهل الظرف
الظريف آلة	كامل آلات الظرف/ آلة المجلس الظريف.

يتبيّن من خلال الجدول أعلاه أن التصوّر الاستعاريّ الظرف ثروة، قد تقدّم على غيره من التصوّرات الاستعاريّة المنضويّة إلى النسق التصوّريّ الظرف ثروة. ثم يليه التصوّر الاستعاريّ الظريف شخص. فيترتّب على ذلك أنّ التصوّر الاستعاريّ الظرف ثروة يخصّص النسق كلّه عند التفكير في الظرف، بينما يخصّص التصوّر الاستعاريّ

20-3.indd 53 8/30/2023 8:44:48 PM

الظريف شخص النسق كلّه عند التفكير في الظريف. وقد جاءت التعابير الكلاميّة في كلّ تصوّر استعاريّ منسجمة لكونها تمثّل جزءا من كلّ هو النسق التصوّريّ.

ومثّل هذا النسق التصوّري الظرف ثروة بمختلف تصوّراته الاستعاريّة «كونا تصوّريّا» (Conceptual Universe) (Elena Semino and Gerard Steen, 2008, p. 239) ما فتئ يتمدّد ليتجاوز مستوى التعبيرات الكلاميّة ويتسرّب إلى الخطاب، ومن ذلك أخبار الظرف والظرفاء. وسنقتصر على تصوّريْن استعاريّيْن لبيان ذلك:

1. التصوّر الاستعاريّ الظرف ثروة:

يُعدّ التصوّر الاستعاريّ الظرف ثروة التصوّر المركزيّ. وقد مثّل العمق العرفانيّ في العديد من أخبار الظرف والظرفاء. ودونك الخبر الآتي بيانا لذلك:

«شربَ كُورَانُ المُغَنّي عند الشريفِ الرضِيّ، فافتقدَ رداءَه، وزعمَ أنه سُرِقَ. فقال له الشريفُ: ويحَكَ! مَنْ تَتَّهِمُ به؟ أما علمتَ أنّ النبيذَ بِسَاطٌ يُطْوَى بِمَا علَيْهِ؟ فقال: انشرُوا هذا البِسَاطَ حتى آخذَ ردائي، واطْلُوه إلى يومِ القيامةِ. قال: فاستضحَكَ القومُ منه، ورَدُّوا عليه رداءَه» (الخطيب الأموي، 2009، ص 287).

يُفهم الظرف في هذا الخبر بوصفه ثروة، نتيجة وجود مجموعة من الترسيمات بين المجاليْن، يمكن إيراد أبرزها في الجدول الآتي:

تصوّر الثروة: المجال المصدر	تصوّر الظرف: المجال الهدف
الثروة تولّد الترفيه	الظرف يولّد الترفيه
كثرة الثروة ربح	كثرة الظرف زيادة في الترفيه
قلّة الثروة خسارة	قلّة الظرف نقصان في الترفيه
الثروة تخفّف العراقيل	الظرف يزيل الملالة وجفاف الجدّيّة وصرامة الانضباط

تُرسّم خصائص الثروة الواردة في الواد الأوّل، خصائص الظرف الواردة في الواد الثاني. فتنشأ مجموعة من التناظرات. ويقتضي إطار الثروة وجود ثريّ ومستفيد من الثروة وموضوع الثروة. والثريّ، في هذا الخبر، كوران المغنّي، والمستفيد من الثروة الشريف الرضي وندماؤه. وقد أخفوا رداء كوران للاستفادة من ثروته، المتمثّلة في الظرف والطرافة.

وقد رأى سلطان كوفيتش أنّ الظرف يقوم أساسا على مفهوم التناقض (Notion of

20-3.indd 54 8/30/2023 8:44:48 PM

incongruity)، وأنّ الأدوات التصويريّة مثل الاستعارة والكناية تساهم في خلق التناقضات. ثم دقّق مفهوم التناقض ورأى أنّه يكون بين الأطر المفهوميّة (Zoltán Kövecses, 2015, pp. 132 - 135). ويظهر ذلك في حرص الشريف الرضي وأصحابه على إخفاء صنيعهم بالاختفاء وراء إطار ذهنيّ مفاده أنّ النبيذ بساط يُطوى ما عليه. فلا يجوز الحديث عمّا وقع أثناء مجلس الشرب، وبناء عليه يبطل الحديث عن الرداء.

ولكنّ كوران المغني استجار بإطار مفهوميّ مناقض، يتمثّل في ضرورة الدفاع عن الممتلكات الخاصّة، خصوصا المفقودة. وبناء عليه يجوز الحديث عن الرداء المفقود. فخرق بذلك الإطار المفهوميّ عند الشريف وصحبه، وكان مدعاة إلى الضحك. ولعلّ التصوّر الاستعاريّ الظريف شخص ثريّ يعزّز هذا التوجّه التصوّريّ.

2. التصوّر الاستعاريّ الظريف شخص ثريّ:

يعدّ هذا التصوّر الاستعاريّ ثاني التصوّرات الاستعاريّة مركزيّة في النسق التصوّريّ الظرف ثروة. وسنقتصر في توضيحه على الخبر الآتي:

«أصبح المعتمد يوماً ثملا، فدخل الحمّام، وأمر أن يدخل النحليّ معه، فجاء وقعد في مسبح الحمّام حتى يستأذن عليه، فجعل المعتمد يحبق في الحمّام، وهو خالٍ، وقد بقيت في رأسه بقيّة من السكر، وجعل كلّما سمع دويّ ذلك الصوت يقول: الجوز، اللوز، القسطل. ومرّ على هذا ساعة، إلى أن تذكّر النحلي، فصادفه، فلمّا دخل قال له: من أيّ وقت أنت هنا؟ قال: من أوّل ما رتّب مولانا الفواكه في النصبة، فغشي عليه من الضحك، وأمر له بإحسان» (المقّري، 2009، ص 1603).

الشخص الثريّ في هذا الخبر هو النحليّ، والمستفيد من الثروة هو المعتمد. وتظهر الثروة في الضحك. وقد جاء الضحك نتيجة التناقض بين الإجابة المنتظرة والإجابة المتحقّقة. فالمعتمد كان ينتظر من النحليّ إجابة تحدّد وقت مجيئه. ولكنّ النحليّ عدل عن تحديد الوقت حسب مقاييس الزمن الفيزيائيّ، إلى تحديده بالنظر إلى أقوال المعتمد، ثم أوّلها، فنسبه إلى باعة الفواكه، وحدّد الزمن بلحظة الشروع في بيع الفواكه. وقد خرق هذا العدولُ الخطاطةَ (Shema) القائمة في ذهن المعتمد عند التلفّظ بالسؤال، وهي تتمثّل في النمط التجريديّ للإجابة عن الأسئلة، حيث يقتضي كلّ سؤال إجابة من جنسه، فأدّى العدول في الإجابة إلى انهيار الخطاطة، فكان مدعاة إلى ضحك المعتمد إلى درجة الغشيان.

وعلى هذا النحو يتّضح أنّ أخبار الظرف والظرفاء ليست مجرّد مدعاة إلى الهزل و«عوارض الضحك ومكوّناته النفسيّة والاجتماعيّة والفنّيّة» (مريم إبراهيم غبان، 2020، ص 168)، بل هي تنشدّ إلى عمق عرفانيّ يتمثّل في النسق التصوّريّ الظرف ثروة بمختلف تصوّراته الاستعاريّة، رغم ما توحي به في ظاهرها بأنّها ترفيه وإمتاع.

20-3.indd 55 8/30/2023 8:44:48 PM

الخاتمة

يتّضح ممّا تقدّم أنّ الأنساق التصوّريّة بمختلف تصوّراتها الاستعاريّة لم تعد سجينة التراكيب اللغويّة المعزولة أو الكلام اليوميّ، بل تضخّمت وتوسّعت، فتسرّبت إلى شرايين الخطاب بما في ذلك الأخبار الأدبيّة. ولم يعد الخبر الأدبيّ نقلا لوقائع مضت وحديثا عن شخصيّات خلت، يُؤتى به لما فيه من جماليّة وإمتاع أو اعتبار وإقناع، فحسب، بقدر ما أصبح كائنا استعاريّا وتجلّيا خطابيّا لعدد من الأنساق التصوّريّة الكاشفة لكيفيّة اشتغال الذهن استعاريّا، وكيفيّة معالجته للتصوّرات المجرّدة عن طريق التصوّرات الحسّيّة أو الأقل تجريدا. وتبيّن أنّ كلّ نوع من أنواع الأخبار الأدبيّة، هو انتشار لنسق تصوّريّ مخصوص، وتحقّق خطابيّ له.

وقد نهضت تلك الأنساق التصوّريّة الواردة في الأخبار الأدبيّة بوظائفها، فـ«وفّرت تمثيلا ذهنيّا كاملا لبعض التجارب» (Zoltan Kovecses, 2015, p. 32). ومكّن ذلك التمثيل من فهم طريقة تفكير فئات مختلفة من المجتمع العربيّ القديم، وهو في متناول جميع المنتمين إلى الثقافة العربيّة الإسلاميّة. وتظلّ نجاعة تلك الأنساق التصوّريّة بمختلف تصوّراتها الاستعاريّة رهينة كفاءة القارئ التأويليّة، وقدرته على المرور من أديم الخبر الأدبيّ إلى طبقاته العميقة، ويقتضي ذلك الاستعانة بـ«التمثيل الذهنيّ» (Mental representation) و«المحاكاة المجسّدة» (Embodied simulation).

وحقّقت تلك الأخبار الأدبيّة مقاصدها، فشيّدت أطرا في ذهن المتلقّي، يتعلّق كلّ إطار بنوع من أنواع الأخبار الأدبيّة. فأصبح ذلك الإطار جزءًا من الذاكرة الموسوعيّة والمعرفة الخلفيّة، حيث يتلقّى المتلقّي كل خبر أدبيّ بناء على مقتضيات ذلك الإطار. وكلّ خبر أدبيّ يعزّز الإطار الذي ينتمي إليه. ولا يمثّل الخلاف في الأطر بين أنواع الأخبار الأدبيّة كأخبار الكرم وأخبار البخل تباينا بين الوقائع أو صراعا بين الأشخاص، بقدر ما يمثّل صراعا استعاريّا. فالصراع الاستعاريّ سابق للصراع بين الأشخاص ومولّد له.

وعلى هذا النحو يمكن القول إنّ دراسة الأخبار الأدبيّة في ضوء منطلقات الفلسفة التجريبيّة ومقولات العرفانيّة قد أنارت جوانب كانت خفيّة، وأوصلت إلى المختلف من النتائج، فحقّقت إعادة التدلال (Signifiance) في الأخبار الأدبيّة. ويؤدّي ذلك، على سبيل الاستقراء، إلى القول بأنّ الأنساق التصوّريّة تخترق جميع أنواع الخطابات، وتشدّها إلى عمق عرفانيّ يربط المعرفة بأسسها التجريبيّة، سواء كانت فيزيائيّة أو اجتماعيّة أو ثقافيّة. ولعلّ انصراف البحث إلى الخطابات الأدبيّة الطويلة مثل الرواية والسيرة، يدعم هذا المسلك التصوّريّ في مقاربة الخطاب الأدبيّ.

20-3.indd 56 8/30/2023 8:44:48 PM

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المراجع العربية:

الأبشيهي، بهاء الدين (2009). المستطرف في كلّ فنّ مستظرف. موسوعة الشعر العربيّ.

الأموي، الخطيب (2009). روضة الأزهار وبهجة النفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الآداب. موسوعة الشعر العربيّ.

البستي، أبو حاتم (2009). روضة العقلاء. موسوعة الشعر العربيّ.

البغداديّ، الخطيب (2009). التطفيل وحكايات الطفيليّين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم. موسوعة الشعر العربيّ.

الثعالبيّ، عبد الملك (2009). لباب الآداب. موسوعة الشعر العربيّ.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (2009) الأذكياء. موسوعة الشعر العربيّ.

ابن حزم، علي بن أحمد (2009). طوق الحمامة. موسوعة الشعر العربيّ.

الحصري، إبراهيم بن علي (2009). جمع الجواهر في الملح والنوادر. موسوعة الشعر العربيّ.

الخطيب، ياسين (2009). الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. موسوعة الشعر العربيّ.

ابن سيده، علي بن إسماعيل (2009). المخصّص. موسوعة الشعر العربيّ.

شارودو، باتريك و منعنو، دومينيك (2008). معجم تحليل الخطاب (ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود). دار سيناترا المركز الوطنيّ للترجمة.

ابن عاصم، محمّد بن محمّد (2009). حدائق الأزاهر. موسوعة الشعر العربيّ.

العاملي، بهاء الدين (2009). الكشكول. موسوعة الشعر العربيّ.

غبان، مريم إبراهيم (2020). فلسفة الفكاهة والضحك في مقامات الهمذاني: المقامة الموصلية نموذجا. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، *17*(1A). 6/1A/17/jhss/10.36394/https://doi.org

القارئ، السرّاج (2009). مصارع العشّاق. موسوعة الشعر العربيّ.

لايكوف، جورج و جونسن، مارك (2016). الفلسفة في الجسد الذهن المتجسّد وتحدّيه للفكر الغربيّ (ترجمة وتقديم عبد المجيد جحفة). دار الكتاب الجديد المتّحدة.

لايكوف، جورج و جونسن، مارك (2018). الاستعارات التي نحيا بها (ترجمة عبد المجيد جحفة). دار توبقال للنشر.

المسعودي، علي بن الحسين (2009). مروج الذهب ومعادن الجوهر. موسوعة الشعر العربيّ.

المقّري، أحمد بن محمّد (2009). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. موسوعة الشعر العربيّ.

ابن منظور، جمال الدين (2009). لسان العرب. موسوعة الشعر العربيّ.

الميداني، أحمد بن محمّد (2009). مجمع الأمثال. موسوعة الشعر العربيّ.

20-3.indd 57 8/30/2023 8:44:49 PM

ثانياً: المراجع الأجنبية:

Cameron, L. (2008). *Metaphor and talk, in The Cambridge Handbook of Metaphor and Thought*. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511816802.013

Fillmore, C. (1982). *Frame semantics, in The linguistic Society of Korea*. Hanshin.

Gibbs, R. W. Jr (2017). Me*taphor Wars Conceptual Metaphors in Human Life*. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/9781107762350

Gibbs, R. W. Jr (1999). *Taking Metaphor Out Of our Heads and Putting It Into the Cultural World, in Metaphor in Cognitive Linguistics*. John Benjamins B. V. https://doi.org/10.1075/cilt.175.09gib

Greimas, A. J. (1966). *Sémantique Structurale*. Larousse, Paris.

Kovecses, Z. (2008). *Metaphor and emotion, in The Cambridge Handbook of Metaphor and Thought*. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511816802.023

Kovecses, Z. (2015). *Where metaphors come from reconsidering context in metaphor*. Oxford University Press.https://doi.org/10.1093/acprof:oso/9780190224868.001.0001

Lakoff, G. (1987). *Women Fire and DangerousThings, What categories Reveal about the mind*. University of Chicago Press.

Lakoff, G. (2008). *The Neural Theory of Metaphor, in The Cambridge Handbook of Metaphor and Thought*. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511816802.003

Lakoff, G. (2012). Explaining Embodied Cognition Results. *Topics in Cognitive Science*, *4*. https://doi.org/10.1111/j.1756-8765.2012.01222.x

Maingueneau, D. (1990). *Pragmatique pour le discours littéraire*. Bordas.

Semino, E., & Steen, G. (2008). *Metaphor in literature, in The Cambridge Handbook of Metaphor and Thought*. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511816802.015

Romanized Arabic References: **الترجمة الصوتية لمصادر ومراجع اللغة العربية:**

al-ʾābshyhy bahāʾa al-dīni 2009). almustaṭrafa fī kullu fanni mustaẓrafi mawsūʻatu al-shiʻri alʻarabiyyi

alʾumawiyyu alkhaṭība 2009). rawḍata alʾaʾazhāri wabahijati al-nufūsi wanuzhati alʾaʾabṣāri aljāmiʻati lifunūna al{dābi mawsūʻatu al-shiʻri alʻarabiyyi

albustiyyi aʾabū ḥātimi 2009). rawḍata alʻuqalāʾi mawsūʻatu al-shiʻri alʻarabiyyi

albaghdādiyyu alkhaṭība 2009). al-taṭfīli waḥikāyāti al-ṭufayliyyīna waʾaʾakhbārihim wanawādiri kalāamihim waʾaʾash'ārihim mawsūʻatu al-shiʻri alʻarabiyyi

al-thaʻālibiyyu ʻabda almaliki 2009). libāba al{dābi mawsūʻatu al-shiʻri alʻarabiyyi

20-3.indd 58 8/30/2023 8:44:49 PM

ibna aljawziyyi ‘abda al-Raḥmāni bn ‘aliyyu 2009 al’a’adhkīā’a). mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

ibna ḥazmin ‘uliya bn a’aḥamida 2009). ṭawqa alḥamāmati mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

alḥaṣriyyu ’ibrāhym bn ‘aliyyu 2009). jama‘a aljawāhiru fī almilḥi wa-l-nawādiri mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

alkhaṭību yāsīna 2009). al-rawḍata alfayḥā’a fī tawārīkhi al-nisā’i mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

ibna sayyidihi ‘uliya bn ’ismā‘yl 2009). almukhaṣṣaṣa mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

shārwdw bātiriyyaka wa mn‘nū dūmīnīka 2008). mu‘jama taḥlīli alkhiṭābi tarjamata ‘abdi alqādiri almuhayriyya waḥammādiyya ṣumūdi dāra synātrā almarkaza alwaṭaniyya lil-tarjamata

ibna ‘āṣimin muḥammada bn muḥammadu 2009). ḥadā’iqa al’a’azāhiri mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

al‘āmiliyyu bahā’a al-dīni 2009). alkashkūla mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

ghubbānun maryama ’ibrāhym 2020). falsafata alfukāhati wa-l-ḍaḥiki fī maqāmātin alhamadhāniyyu almaqāmatu almawṣiliyyatu namūdhajan majallatu jāmi‘ati al-shāriqati lil-‘ulūma al’insāniyyata wa-l-ijtimā’iyyata 17(1A). https:// doi. org / 10. 36394 / jhss / 17 / 1A / 6

alqāri’iu al-sirāja 2009). muṣāri‘a al‘usshāqi mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

lāykwf jūrjan wa jūnisna māraka 2016). alfalsafata fī aljasadi al-dhahini almutajassidi wataḥaddīhi lil-fikra algharbiyya tarjamatan wataqdyma ‘abdi almajīdi juḥfatu dāra alkitābi aljadīdi almuttaḥidati

lāykwf jūrjan wa jūnisna māraka 2018). alisti‘ārāti allatī nuḥayyā bihā tarjamata ‘abdi almajīdi juḥfatu dāra twbqāl lil-nashra

almas‘ūdiyyu ‘uliya bn alḥissayni 2009). murawwija al-dhahabi wama‘ādini aljawhari mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

almaqarriyyu a’aḥamida bn muḥammadu 2009). nafaḥa al-ṭayyibu fī ghuṣni al’a’andalusi al-raṭybi mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

ibna manẓūrin jamāla al-dīni 2009). lisāna al‘arabi mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

almaydāniyyu a’aḥamida bn muḥammadu 2009). majma‘a al’a’amthāli mawsū‘atu al-shi‘ri al‘arabiyyi

20-3.indd 59 8/30/2023 8:44:49 PM

Conceptual systems in some samples of literary stories

Mohamed Naceur Kahouli[1]

Abstract:

This article aims to study the conceptual systems lying at the very heart of literary stories, explain how they operate, and identify their role in producing those news. It refers the literary story back to its cognitive roots, anchors it in various physical, social, or cultural experiences, and confirms the metaphorical capacity of the human mind. The research includes several sections, each of which covers a type of literary story to find out the most prominent types of conceptual system controlling it. It also clarifies the metaphorical concept the story involves and how it represents the depth of cognition in that type of stories, in addition to revealing the process of mapping between those concepts and the literary narratives.

The study is based on the theoretical premises of empirical philosophy and the theories of cognition. It aspires to confirm that literary stories seem to be a discursive realization of the conceptual systems that lie in their depths.

Keywords: Conceptual system, Concept metaphorical, literary story, projecting, mappings.

(1) College of Arabic Language and Social Studies – Qassim University (Qassim - K.S.A.)
Knacirov1@yahoo.fr

20-3.indd 60 8/30/2023 8:44:49 PM